لا يمكن الحكم على الحدث إلا إذا نظرت لصورته من جميع أبعادها وزواياها . تلك القاعدة الأساسية والأولية للفهم والتحليل وبناء الأحكام بصورة راشدة ، دون ذلك فإن الاستعجال في التحليل والنظرة الأحادية والانسياق وراء التفسيرات الجاهزة والرؤى المسبقة والأفكار المعبأة يضعك مباشرة أمام الأحكام الخاطئة أو المنقوصة .وهذا ما حدث بالضبط مع حادثة إسقاط الطائرة الروسية التي اخترقت المجال الجوي التركي هذا الأسبوع .

فجأة وجد العالم نفسه أمام حدث نادر لم يُر مثله منذ أكثر من نصف قرن ، فلأول مرة منذ أوج الحرب الباردة في خمسينيات القرن المنصرم تقوم طائرة تابعة لحلف الناتو بإسقاط طائرة روسية ، بعد أن قامت الطائرات التركية المقاتلة بإسقاط طائرة روسية من طراز سوخوي 24 بعد أن اخترقت المجال الجوي التركي لثوان معدودة . وقد التهبت الأجواء وتوتر المشهد الإقليمي والعالمي ، ونُسيت أحداث باريس ، وطائرة شرم الشيخ ، وتسلطت الأضواء على الحدث ، وتبارى المراقبون بين دراسة أسباب الحدث واستشراف آثاره وأبعاده ، غير أن أحدا منهم لم يتطرق للجوانب الجيوسياسية الخفية في الحدث ، وما بعد الحدث ، حيث أن لو نظرنا إلى الحدث نظرة مجردة من كل ضواغط الفهم ومسارات التوجيه المسبقة، لوجدناه عبارة عن إسفين أمريكي من العيار الثقيل تضرر منه الجانبان – التركي والروسي – على حد السواء ، فهذا الحدث من نوعية الأحداث التي يخسر فيها الجميع .

فتركيا تواجه منذ بداية ثورات الربيع العربي محاولات حثيثة من الغرب وإيران لتحجيم دورها الإقليمي ومحاصرة نظامها الحاكم الساعي لإقامة شراكة إستراتيجية مع مصر والسعودية وقطر في مواجهة اللوبي الصهيوني والإيراني في المنطقة ، ولكن سياسة أردوغان وحكومته شهدت تراجعاً واضحاً في المنطقة،في ظل انحصار نفوذ قوى الثورات العربية التي دعمتها تركيا في العالم العربي، مقابل صعود تيار ما بات يعرف بـ"الثورات المضادة" المعادي لها بشكل واضح ، كان أبرز تجليات هذا التراجع في "الفشل الكبير" الذي تلقته أنقرة بحصولها على 60 صوتاً فقط من أصل 193 دولة هم أعضاء الجمعية العامة للأمم المتحدة، في التصويت الذي جرى لمنح مقاعد غير دائمة لخمس دول جديدة في مجلس الأمن الدولي قبل عدة أشهر . ثم الضربة الموجعة في الانتخابات البرلمانية والتي حقق فيها الحرية والعدالة أسوأ نتائجه منذ عشر سنوات ، وفقد الأغلبية اللازمة للانفراد بتشكيل الحكومة. ثم كانت ثالثة الأثافي بسيطرة الأكراد في سوريا على أجزاء كبيرة في شمال سوريا بمساعدة مباشرة وقوية من الطيران الأمريكي ، وجاء انتصار الأكراد في تل أبيض التي كان يسيطر عليها تنظيم الدولة ليمنحهم فرصة لربط ثلاثة جيوب كردية مع بعضها البعض في دويلة "روجوفا"، التي أفرزتها التغيرات التي تشهدها خريطة الشرق الأوسط. وتحت هذه الضغوط الدولية بقيادة أمريكا أُجبر أردوجان على قبول التعاون مع التحالف الدولي في قتال داعش بسوريا، وفتح قاعدة أنجيرليك الجوية لطائرات التحالف لقصف مواقع داعش في شمال سوريا ، وذلك في أعقاب تفجير مدينة سروج التركية والذي خلّف أكثر من 30 قتيلا كرديا . هذا القرار الذي اعتبره الإسلاميون وأنصار الثورات في المنطقة بأنه خيانة عظمى للثورة السورية . بالجملة نجحت أمريكا وأوروبا في تحجيم الطموح التركي ومحاصرة نظام أردوجان بشكل كبير ، فأمريكا تريد من تركيا أن تبقى دولة ضعيفة تابعة للمعسكر الغربي ، رهينة التبعية الكاملة دون شرط أو قيد.

ولكن بجراءة وذكاء سياسي فذّ استطاع أردوجان وحكومته تجاوز كل هذه الضغوط الغربية بقيادة أمريكا ،وخلال شهر نوفمبر الحالي سجلت تركيا بقيادة حزب العدالة والتنمية على الأقل عدة إنجازات كبيرة على مستويات متعددة،كان لها دور في المساهمة في رفع صورة تركيا وإبرازها كدولة كبرى ذات سيادة في المنطقة .الإنجاز الأول كان في مطلع شهر نوفمبر، وتمثل في قدرة حزب العدالة والتنمية على استدراك أوضاعه وتنفيذ خطط منظمة، نجح من خلالها في تغيير قناعة المواطن التركي ليعطيه الثقة من جديد؛ ليستطيع الحزب أن يشكل الحكومة بمفرده ويتخلص من دوامة خلافات الحكومات الائتلافية، ولينعم بمزيد من الثقة عند اتخاذه القرارات على المستوى الداخلي أو الخارجي. أما الإنجاز الثاني على صعيد إدارة التصور العام؛ فقد ظهر في تنظيم تركيا لقمة العشرين في مدينة أنطاليا منتصف الشهر الحالي، وقد لُمس في تفاصيلها ومختلف مراحلها، التي تمت عبر يومين، كيف استقبل الرئيس التركي الزعماء العالميين وكيف تعامَل معهم بندية تُظهر كيف يريد الأتراك لبلادهم أن تبدو بين الأمم، وفي هذا السياق قارن كثيرون مواقف رؤساء بلادهم بمواقف الرئيس التركي بل إن الأتراك أنفسهم قد قارنوا موقف رئيسهم بمواقف رؤساء أتراك سابقين . بالجملة فإن تركيا قد حققت تقدما إستراتيجيا ملحوظا وتفوقا إقليميا غير قواعد اللعبة ، وفرض على الأمريكان تفكيرا جديدا في مواجهة تصاعد المكانة التركية في المنطقة .

دخول الروس إلى ساحة الأحداث في سوريا كانت فرصة هائلة للأمريكان من أجل تحقيق كافة أهدافها الإستراتيجية في المنطقة ابتداء من تدمير تنظيم الدولة الإسلامية – داعش – وانتهاء بتفكيك دول المنطقة وفرض سايكس بيكو جديدة تتلافى أخطاء القديمة . فدخول الروس كان مناسبا جدا لتمزيق بلاد الشام لدويلات وكونتات طائفية ، وإشعال المنطقة بحرب داخلية لا تبقي ولا تذر ، كما كان مناسبا لتدمير القدرات الروسية ، وتحجيمها ، بعد أن فات الغرب تحقيق ذلك في أوكرانيا ، وأيضا كان مناسبا لمحاصرة الدور التركي في معادلة الصراع السوري ، ومواجهة النمو المتزايد للنفوذ التركي في المنطقة ، ووقف مطالبها المتكررة بإنشاء منطقة عازلة في شمال سوريا . لذلك من يتابع سلسلة الإجراءات التي اتخذها الغرب ممثلا في حلف الناتو منذ دخول الروس لسوريا يجد أن هذه الإجراءات كانت لاستدراج الأتراك لفخ الصدام مع الروس ،ومن ثم تفجير العلاقات الإستراتيجية المميزة بين الجانبين ، بما يحقق إضعافا مزدوجا لكليهما .

فالناتو منذ دخول الروس إلى سوريا قام بتغيير قواعد الاشتباك مرتين لتصبح أكثر صرامة واستعدادا لمواجهة العربدة الجوية للروس في المنطقة ، ثم كانت الإشارات الخضراء المتتالية من جانب قيادات الناتو والأمريكان للأتراك لعرقلة روسيا في سوريا التي باتت أجوائها ساحة تنافس دولي وعرض عضلات عسكرية دولية في المنطقة ، وفي المقابل لم يأل الروس جهدا في مواصلة الاستفزاز والتحرش بتركيا ، واستهداف التركمان في منطقة جبل التركمان شمال اللاذقية ، وكأن الجانبين قد قررا الاستجابة بعمى !! للتحريض غير مباشر من الطرف الساعي لإيقاع الخصومة بين الجانبين ، حتى تم الأمر ووقع حدث إسقاط الطائرة الروسية . فلماذا تريد أمريكا تمزيق العلاقة بين الروس والأتراك

طبيعة العلاقات التركية الروسية يغلب عليها الطابع المميز لمسار العلاقات الدولية، ذلك المسار الذي يتراوح ما بين التقارب والتباعد على مدار التاريخ، في حين تظل السمتان على مستوى متقارب وهو ما ينطبق على مسار العلاقات التركية الروسية، فإذا كان صحيحًا أن الطرفين يحرصان على تنمية علاقاتهما والحفاظ على مستوى معين من التقارب حماية لمصالحهما المتبادلة، إلا أنه من الصحيح أيضًا أن التاريخ شهد لحظات فارقة في مسار علاقاتهما وإن لم تدم طويلًا، وهو ما يمكن تفسيره في ضوء ثلاثة عوامل: الأول يرتبط بتوجهات القيادة السياسية في الدولتين. والثاني يتعلق بحجم الارتباطات الدولية والإقليمية لكل طرف. والثالث يتحدد في ضوء طبيعة القضايا والمشكلات الخلافية بينهما . وبعيدا عن ميراث العداوة التاريخية العريض بين الأتراك والروس ، فإن واقع العلاقات اليوم بين الدولتين أكبر من حسابات الماضي. اليوم تمر العلاقات بين الجانبين بمرحلة تغيير واضحة الملامح، قد تظهر آثارها تباعًا لخلق صيغة عصرية لإدارة هذه العلاقة التي ربما تكون علاقة واعدة وجاذبة لعلاقات تعاونية أخرى في تلك المنطقة التي يسودها حراك جاهز لأخذ أي اتجاه . وهو حتما ما يغضب ويقلق الأمريكان ويضايقهم

يمثل الجانب الاقتصادي حجر الزاوية في مسار التقارب التركي الروسي ،فتعتبر روسيا ثاني أكبر شريك تجاري لتركيا، كما تزود أنقرة بأكثر من 55٪ من احتياجاتها من الغاز الطبيعي، بالإضافة إلى أن السياحة الروسية إلى تركيا بلغت عام 2014 أكثر من 5 مليون سائح، وهي أرقام تؤشر لحجم الكارثة التي ستلحق بالاقتصاد التركي والروسي ، في حال قررت روسيا وقف تعاملاتها الاقتصادية والتجارية مع أنقرة، لا سيما بعدما أعلنت الأربعاء، وقف تعاونها العسكري، في حين تعد تركيا أكبر خامس شريك تجاري لروسيا بحصة تبلغ 6.4٪ من إجمالي التجارة الخارجية الروسية. وبلغ التبادل التجاري بين موسكو وأنقرة في العام الماضي 31 مليار دولار، ووصل إلى 18.1 مليار دولار للأشهر التسعة الأولى من العام الحالي، منها 15 مليار دولار هي صادرات روسيا إلى تركيا التي تشكل واردات الطاقة حصة الأسد فيها، حيث تقوم روسيا بتلبية أكثر من نصف احتياجات الغاز في تركيا، وبعد الأخذ بعين الاعتبار »تجارة الخدمات« فإن مؤشر التبادل التجاري الكلي (بضائع وخدمات) بلغ في عام 2014 ما يقارب 44 مليار دولار. وتعد أنقرة ثاني أكبر مشتر في العالم للغاز الطبيعي الروسي بعد ألمانيا، كما أن موسكو هي أكبر مورد للغاز الطبيعي لتركيا، إذ تبلغ كمية مشتريات الأخيرة من الغاز الروسي ما بين 28 و03 مليار متر مكعب، وهو ما يمثل ثلثي حاجيات تركيا من هذه المادة سنويا.كما تزود روسيا تركيا بالنفط الخام وبالمشتقات النفطية، وقد احتلت موسكو المرتبة الرابعة عام 2013 ضمن كبار موردي المواد المذكورة لتركيا. وتعتبر تركيا أيضا إلى جانب مصر أكبر المشترين للقمح الروسي، فقد اشترت أنقرة 4.1 ملايين طن في السنة التسويقية الماضية التي انتهت في يونيو

5102.وفي مجال الصلب،تحتل تركيا المرتبة الأولى ضمن أكبر المشتريات لمنتجات روسيا نصف الجاهزة .

هذه البيانات والمؤشرات الاقتصادية تدل على خطورة المجازفة بقطع مثل هذه العلاقات ، وفداحة أثرها على الروس والأتراك على حد السواء . ومع استبعاد الخيار العسكري المباشر في الرد الروسي ، فلم يبق لموسكو سوى الرد بعقوبات اقتصادية كبيرة ضد أنقرة لحفظ ماء وجهها وهيبتها الدولية ، رئيس الوزراء الروسي ديميتري مدفيدف، قال الأربعاء، إن إسقاط تركيا الطائرةَ الروسية قد يؤدي إلى إلغاء بعض المشروعات المشتركة المهمة بين البلدين، وأضاف مدفيدف في بيان على الموقع الإلكتروني لحكومته أن الشركات التركية قد تخسر حصتها في السوق الروسية .

والواقع أن تدمير العلاقات الاقتصادية المميزة بين تركيا وروسيا لن يستفيد منه سوى الغرب المتوجس من التنامي المتزايد لنفوذ الروس والأتراك، وخاصة الأتراك الذين نجحوا في تقديم النموذج المثالي للدولة المسلمة العصرية التي تستطيع أن تستقل بقرارها وتحفظ هيبتها وتضع خطوطا حمراء لكرامتها وأمنها القومي حتى لأكبر القوى العالمية ، فالصعود التركي في نظر الرأي العام الشرق أوسطي هو تعبير عن شعور حقيقي مفاده أن السياسة التي تسير تركيا عليها هي الأقرب لما يطمحون إليه ولما يريدون تحقيقه في بلادهم، وقد شهدنا ذلك من خلال متابعة ردود الأفعال المختلفة من شتى البلدان العربية على الأمثلة المذكورة سابقًا، سواء الانتخابات البرلمانية أو تنظيم قمة العشرين أو إسقاط الطائرة الروسية . لذلك لا يمكن النظر لحادثة إسقاط الطائرة على أنه مجرد حماية دولة لحدودها ومجالها الجوي أو حتى أمنها القومي إلى آخر هذه المبررات التي سيقت ، فكان من الممكن اقتياد الطائرة الروسية وإجبارها على الهبوط بالأراضي التركية ، وتلقين الروس درسا قاسيا أيضا ، مع الحفاظ على العلاقات الاستراتيجية ، ولكن إسقاط الطائرة خلق وضعا صعبا لا يمكن تجاوزه بسهولة ، والصدام بين تركيا وروسيا قادم لا محالة ، وستجد تركيا نفسها مضطرة مرة أخرى للعودة للحضن الأمريكي الدافئ ، والرضوخ للمطالب الأمريكية ، ومن يدري ربما التورط في حرب برية في شمال سوريا إذا زادت الاستفزازت الروسية للأتراك هناك ، وهو ما تقوم به روسيا اليوم على قدم وساق بالقصف الذي لا يتوقف لجبل التركمان ، واستهداف المليون ونصف تركماني وهم قوام الجالية التركية في سوريا والتي ترى فيهم تركيا امتدادا ديمغرافيا لها في شمال سوريا تحقق بهم التوازن في معادلة الردع أمام الطموحات الكردية في هذه المنطقة . لذلك كله ، فإن إسقاط الطائرة كان فخا سقط فيه الجانبان الروسي والتركي ، وبلعا الطعم سويا بأكمله ، ولا يبق لهما سوى تحمل آثار وتبعات هذه الحادثة ، في الوقت الذي يجلس فيه أوباما في حديقة البيت الأبيض يحتسي فنجان القهوة في هدوء وسلام مسرورا بأسفينه الشيطاني

كاتب المقالة : شريف عبد العزيز
تاريخ النشر : 02/12/2015
من موقع : موقع الشيخ محمد فرج الأصفر
رابط الموقع : www.mohammdfarag.com